- 11 -

مهمة عبثية

لم يكن لي لأجد مستشفى المنطقة الخضراء، لو لم أرَ حاويات الشحن الخضراء، زيتونية اللون، التي تحمل صلبان حمراء لامعة، مكدسة عبر الشارع. بدا المستشفى مثل عشرات الفيلات الأخرى، المبنية من الرخام والحجر الرملي، التي تحيط بالقصر الجمهوري. بلغ ارتفاع أعمدة رواق المدخل ما يعادل طابقين، وقد كانت النوافذ مظللة، ناهيك عن أشجار النخيل الباسقة المحيطة بجانبي المبنى ومؤخره. تم التعريف عنه بواسطة لوحة صغيرة موضوعة إلى جانب رواق المدخل، بما يشابه لافتات محال المجوهرات أو الخياطة.

لم يكن الشك ليعتري المرء، بكل الأحوال، ما إن يدخل المبنى، بأن هذا الصرح الضخم، المؤلف من ثلاثة طوابق، يمثل مستشفى عسكرياً أمريكياً حديثاً. حوى الأخير خمس غرف للعمليات، وعشر غرف للطوارئ، وستة وسبعين سريراً، ناهيك عن أجهزة التنفس الاصطناعي، وأخرى حاسوبية لمراقبة حركة القلب، وجهاز للتصوير الطبقي. وقف جراحو الأعصاب واختصاصيو الحروق على أهبة الاستعداد لمعالجة الجروح الناجمة عن تفجير العبوات المزروعة على جوانب الطرق.

لم يمتلئ المستشفى بحبيبات الرمال الصحراوية، التي يجدها المرء أينما ولى وجهه في العراق. كانت أرضيته البيضاء تنظف على الدوام، علاوة على جدرانه ونوافذه. اتسمت الأحذية العسكرية التي ينتعلها أطباء الطوارئ، بما يشذ عن ذلك، بالاتساخ، وقد كانت سوداء، عوضاً عما يصبغها من لون بني فاتح، ناهيك عما يلطخها من دماء.

دعا العراقيون المستشفى «ابن سينا»، تيمناً باسم الطبيب الرائد في التاريخ الإسلامي القديم، بينما أسماه الأمريكيون «الوحدة الثامنة والعشرين»، اسم الوحدة

العسكريــة التــي تديره، التي نشرت ما يزيد عن ثلاث المئــة والخمسين من الأطباء، والممرضين، وموظفي الدعم في المنطقة الخضراء.

مثل المستشفى، قبل الحرب، عيادة خاصة لأقارب صدام وقادة حزب البعث. بقي مرفقاً خاصــاً، عند وصول الأمريكيين، ليقتصر رواده علــى الجنود، وموظفي سلطة الائتــلاف، والمتعهدين الخصوصيين. لم يسمح لغير من أصيب خطأ من العراقيين، بنيران القوات الأمريكية، بدخوله.

وظف تومي تومسون، وزير الصحة والخدمات الإنسانية، المستشفى، بالرغم من انتقائيتــه في التعامل مع العراقيين، لإطراء سلطة الائتلاف المؤقتة، في أثناء زيارته بغــداد، بعــد أحد عشر شهراً من الاحتلال. أعلن الرجل فــي حينه، أمام رواق مدخل المستشفى، أن الأخير يجسد مثالاً على كيفية بدء الولايات المتحدة في «إعادة تأسيس العراق مركزاً متقدماً للوقاية والعناية الطبيتين».

لم يكن شيء من ذاك التقدم ملموساً خارج مدينة الزمرد.

لم يبعد مستشفى اليرمــوك، المؤلَّف من مجموعة من المباني الإسمنتية المكونة مــن طابقين، المشيــدة حول ساحــة إسمنتية، أكثر مــن خمس دقائــق بالسيارة عن المنطقــة الخضراء، ولم تكن تفصله عن طريق المطار ســوى بضع كتل سكنية. مثّل المستشفــى واحــداً من أكبر المراكز الطبيــة في بغداد وأكثرهــا ازدحاماً، لأرى فيه -بعد عدد من الزيارات لأكثر من عشرة مستشفيات أخرى عبر العراق- ممثلاً نزيها لنظام الرعاية الصحية في البلاد. جسد اليرموك، بكل بساطة، كارثة حقيقية.

لــم يتسم أي مــن محتوياته بالنظافة. كانت ملاءات الأسِــرَّة متسخة، ناهيك عن الأرضيــات الملطخة بالدمــاء، والمراحيض الفائضة. افتقرت الغــرف إلى المعدات الأساسيــة اللازمــة لمراقبة ضغــط دم المريض، أو معدل نبضــات قلبه. خلت غرف العمليــات من المعدات الجراحيــة الحديثة أو الأدوات المعقمــة، ناهيك عما اتسمت بــه رفوف الصيدلية من خواء. ألقت بضع نقالات متحركة ملطخة بالدماء، في غرفة الطوارئ، بظلال قاتمة على أرضيتها. لم يكن هنالك من أجهزة للصدمة الكهربائية، أو التنفس الاصطناعي، أو معدات لنقل الدم، أو محاقن للأدرينالين.

قمت بزيارة اليرموك، للمرة الأولى، بعد بضع ساعات من تفجير السفارة الأردنية بسيارة يقودها انتحاري. ضجت المستشفى بصرخات من أطاح الانفجار بأوصالهم، دون أن يحصلوا على أي مما يسكن آلامهم. اشتممت رائحة الدماء، والبراز، والجثث التي كانت مخزنة بلا تبريد. تجمع الأقارب اليائسون حول أحبائهم، ممن احترقوا وشوهوا بما ينهي حياتهم قبل انقضاء الليل. تلمسّت يد عباس علي، الشاب هزيل الجسد، طويل القامة، الذي اكتست بطنه وساقاه بما بدا حروقاً من الدرجة الثالثة، وظهرت ملامح الألم جلية على وجهه. امتنع الرجل عن البكاء، بالرغم من ذلك، مكرراً عبارة: «بسم الله الرحمن الرحيم». أخبر الطبيب مترجمي أن عباس سيفارق الحياة في غضون يوم أو اثنين. تحدث، بذلك الصدد، قائلاً: «لا يمكنني فعل شيء. لا نملك الأدوات لمعالجته».

لا تختلف قصة مستشفى اليرموك، على وجه التقريب، عن أي من المؤسسات العامة الأخرى في العراق. مثّل المستشفى، في سبعينيات القرن المنصرم، واحدا من أفضل المراكز الطبية في العالم العربي. اعتاد الأردنيون، والسوريون، والسودانيون السفر إلى بغداد لإجراء العمليات. تغير ذلك، بالطبع، بعد غزو الكويت، وفرض العقوبات على البلاد. لم يحظَ المستشفى بما يكفي من الدواء، بالرغم من حصول صدام، في نهاية المطاف، على حق بيع النفط مقابل الغذاء والإمدادات الإنسانية. توجهت الحكومة العراقية باللوم إلى الأمم المتحدة لتعطيلها طلبات الشراء، بينما أنحت الأخيرة باللائمة على الحكومة العراقية لما تطلبه من مواد غير مناسبة، ناهيك عن توجيه العقود إلى الأصحاب عوضاً عن المزودين من ذوي السمعة الحسنة. اعتقدت إدارة بوش أن حكومة صدام –التي كانت تحاول حشد التأييد الدولي لرفع العقوبات– تتعمد حرمان اليرموك، وغيره من المستشفيات، من التجهيزات المطلوبة.

ازدادت حال المستشفى سوءاً، بغض النظر عن تردي أوضاعها قبل وصول الأمريكيين، عند دخول الجيش الأمريكي بغداد. ضربت قذيفة دبابة المستشفى، يوم سقوط حكم صدام، لتدمر مولد الكهرباء، وترغم الأطباء على الفرار إلى منازلهم. لم يكتفِ الناهبون، مع غياب من يحرس المبنى، بسلب الأسرة، والأدوية، ومعدات

غرف العمليات فحسب، بل أجهزة التصوير الطبقي وفوق الصوتي. كافح الأطباء -حين عادوا إلى العمل- لتقديم الإسعافات الأولية بأدوات بديلة.

أوكلت مهمة إعادة تأهيل نظام الرعاية الصحية في العراق، ما إن وصل الأمريكيون، إلى فريدريك بيركل، جاى آر، الطبيب الحائز على شهادة الماجستير في مجال الصحة العامة، وشهادات عليا من هارفارد، ويال، ودارتماوث، وجامعة كاليفورنيا في بيركيلي. شغل بيركل منصب ضابط احتياط في البحرية، وقد حاز على نجمتين برونزيتين، ناهيك عن عمله نائباً مساعداً لمدير مكتب الصحة العالمية، في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. درّس الرجل، علاوة على ذلك، في كلية جونز هوبكنز للصحة العامة، حيث تخصص في التعامل مع الكوارث. وفر بيركل المعونة الطبية للأكراد في شمال العراق، في أثناء حرب الخليج الثانية. عمل في كوسوفو والصومال، وأوكل، في أثناء المرحلة التحضيرية لغزو العراق، مسؤولية تنظيم الاستجابة الأمريكية إلى الأزمة المتوقعة فيما يتعلق بمجال الصحة العامة في العراق. وصف الرجل، من قبل أحد زملائه في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية «بأكثر المتخصصين العاملين لدى حكومة الولايات المتحدة موهبة وخبرة في مجال الرعاية الصحية، في مرحلة ما بعد النزاع».

أعلم بيركل، بعد أسبوع من تحرير بغداد، باستبداله. أخبره مسؤول بارز في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية أن البيت الأبيض يريد «مواليا» في تلك الوظيفة. امتلك الرجل العديد من الشهادات، لتتمثل مثلبته الوحيدة في افتقاره إلى صورة شخصية مع الرئيس.

أوكلت مهمة بيركل إلى جايمس هافمان، جاى آر، البالغ الستين من العمر، العامل في المجال الاجتماعي، المجهول، إلى حد كبير، بين خبراء الصحة العالمية. لم يحمل الرجل شهادة طبية، ولكنه امتلك كثيراً من الصلات. عمل مديراً للصحة العامة لدى حاكم ميتشيغان الجمهوري السابق، جون إنغلر، الذي زكاه لدى وولفويتز. تعددت أسفار هافمان، لتقتصر رحلاته، إلى ما وراء البحار، بمعظمها على وظيفته مديراً «للعون الدولي»، منظمة الإغاثة ذات التوجه الديني، التي توفر الرعاية الصحية،

بينما تروج للمسيحية في العالم النامي. أدار الرجل في ميتشيغان، قبل عمله مع الحكومة، وكالة مسيحية كبيرة للتبني، حثت النسوة الحوامل على عدم الإجهاض.

اتسم قوام هافمان، ذو الشعر الفضي، والبشرة المتوردة، بالاعتدال، وقد كان يرتدي نظارات، ويعلق على صدره مشبكاً يصور العلم الأمريكي متقاطعاً مع نظيره العراقي. انتمت نبرة صوت الرجل إلى الغرب الأوسط، وقد كان يتمتع بلباقة أهل البلدة الأمريكية.

سلمت مسؤولية وزارة الصحة، في الشهرين الفاصلين بين إعفاء بيركل ووصول هافمان، إلى ستيف براونينغ، اختصاصي فيلق المهندسين في الجيش الأمريكي، الذي ترأس أربع وزارات في أثناء الأسابيع الأولى للاحتلال، وتولى، في وقت لاحق، مسؤولية زيادة إنتاج الطاقة الكهربائية. لم يحظَ براونينغ بالخبرة في المجال الطبي، ليمتلك ما يكفي من المعرفة، ناهيك عن التواصل مع الخبراء، لوضع لائحة من الأولويات، تصدرتها بنود الوقاية من الأمراض، وتوفير مياه نظيفة للشرب، وتحسين مستوى الرعاية في المستشفيات، علاوة على توفير العقاقير والتجهيزات الطبية. خلت المستشفيات والعيادات من المضادات الحيوية، ومسكنات الآلام، والأدوية الأخرى. غدا البت، علاوة على ذلك – فيما إذا كانت الشركة المملوكة من قبل الحكومة، المسؤولة عن طلب وتوزيع العقاقير والتجهيزات، تخزن السلع المطلوبة – من الأولويات الرئيسة.

رغب بريمر، بعد بضعة أيام من وصوله إلى بغداد، في زيارة أي من المستشفيات. ارتأى مساعدوه في ذلك فرصة طيبة لالتقاط الصور. ركب براونينغ برفقة بريمر، في الطريق إلى أحدها، عربة السوبربان المصفحة خاصته. اعتقد براونينغ أن بمقدوره استغلال الوقت لمناقشة مخططاته بشأن الوزارة، ناهيك عن الحاجة إلى تلقي معونات خارجية ضخمة، ليتحدث بريمر مطولاً عن «عملية الابتسامة»، الأمريكية الخيرية لإرسال الأطباء عبر البحار؛ بغية إجراء عمليات ترميمية لمن يعاني التشوهات الوجهية من الأطفال. أومأ براونينغ برأسه، موافقاً بريمر، في بادئ الأمر، توخياً لآداب الحديث، قبل أن يعمد إلى مقاطعته، حين استفاض في التحدث عن العملية، قائلاً:

obeikandl.com

«انظر، يتعين عليك فهم طبيعة الأوضاع على الأرض. نحاول منع الأمراض الوبائية من الانتشار. نحاول توفير بعض مياه الشرب النقية للناس، لا أكثر، ناهيك عن استعادة الخدمات الأساسية في المستشفيات، وتوفير التجهيزات الصيدلانية والطبية. يتسم التحدث عن أمر مثل عملية الابتسامة بالسخافة».

لو قاطع شخص آخر الحاكم بتلك الطريقة، لعمل على استبعاده في التو واللحظة، ولكن مكانة الرجل أكسبته الشفاعة. عُدّ واحداً من أكثر مديري سلطة الائتلاف المؤقتة موهبة، وقد كان الجميع يدركون، كما بدت الحال عليه، بغض النظر عما افتقرت إليه مستشفيات العراق من أمور أخرى، أنها زودت بالمولدات الكهربائية بفضل ستيف براونينغ.

تجمهر حشد غاضب من الناس أمام وزارة الصحة، بعد شهر من تحرير بغداد. بدأ رجل عراقي، طويل القامة، نحيل الجسد، يشبه الرئيس الأمريكي آبراهام لينكولن، في لطم صدره، بينما كان براونينغ يشق طريقه وسط الجموع للتحقق من مظالمهم. رفع الرجل -حين اقترب منه براونينغ- صورة طفلة وليدة. استلزم مترجم براونينغ بضع دقائق كي يشرح الأمر: كانت الطفلة ابنة الرجل، وقد توفيت في حاضنتها جراء انقطاع الكهرباء، وافتقار المستشفى الذي ولدت فيه إلى مولد كهربائي عامل.

قدم براونينغ، في تلك الليلة، عرضاً لشراء مولدات جديدة لكل مستشفى رئيس في العراق. عرض الرجل الوثيقة على جاي غارنر، ليوافق عليها فوراً.

عمد براونينغ؛ بغية مقاربة المشكلة المتمثلة في نقل الأدوية من مستودعات الحكومة إلى المستشفيات، إلى تفويض تشاك فيشر - طبيب القوات الخاصة، الذي أنقذ إلياس نمر، فيما بعد، عند قصف فندق الرشيد - بسلطات واسعة لنقل صناديق العقاقير من الرفوف إلى المستشفيات في مواكب عسكرية. خاطب براونينغ الرجل، بذلك الصدد، قائلاً بضرورة التغاضي عن الإجراءات الروتينية، والذرائع المتمثلة في تبوء العراقيين واجهة الأحداث، حيث كان الناس بحاجة للدواء، وتعين على الأمريكيين إيصاله.

حاول براونينغ مراراً، حين علم باختيار هافمان لقيادة فريق السلطة الصحي، التواصل مع الأخير حين كان لا يزال في الولايات المتحدة. رغب الرجل في إطلاع هافمان على الأوضاع، ليستهل عمله بخطى متسارعة. ما عاود هافمان الاتصال به قط.

وصل هافمان بغداد برفقة معاونه العسكري، ورئيس طاقم موظفيه، مستحضراً أولوياته الخاصة. أكد الرجل، أمام وسائل الإعلام، على عدد المستشفيات التي أعيد افتتاحها منذ انتهاء الحرب، ناهيك عما تم منحه للأطباء من زيادة في الرواتب، عوضاً عن الإشارة إلى الأوضاع المتردية في المستشفيات، أو الحقيقة المتمثلة في مغادرة العديد من الأطباء العراق؛ بحثاً عما هو أكثر أمناً وربحاً من الوظائف. قارب هافمان المشكلات التي تواجهه وفق أسلوب مديري الرعاية الصحية في أمريكة، عبر التركيز على الإجراءات الوقائية للتقليل من الحاجة إلى تلقي العلاج في المستشفيات، وحث وزارة الصحة على إطلاق حملة لمكافحة التدخين. عين هافمان أمريكية من فريق سلطة الائتلاف المؤقتة، تبين أنه يدخن في الخفاء، لقيادة جهود التوعية العامة فيما يتعلق بذلك الصدد. لحظ عدد من أعضاء فريق هافمان، بما يدعو للسخرية، أن العراقيين يواجهون، في حياتهم اليومية، ما هو أعظم خطراً من مجرد لفافة تبغ صغيرة. جادل أولئك على أفضلية استخدام موارد سلطة الائتلاف المحدودة في رفع مستوى الوعي عن كيفية الوقاية من إسهال الأطفال، وغيره من الأمراض المهلكة. استحضرت تعليقاً أصدره مرافقي، من وزارة الإعلام العراقية، قبل اندلاع الحرب، حين سألته عن سبب بلوغ تكلفة علبة السجائر ما يقارب الثلاثين سنتاً، لا أكثر.

خاطبت الرجل، في حينه، قائلاً: «علي، لا تنفك حكومتك تتذمر من افتقارها إلى المال الكافي. لم لا تفرض ضريبة على السجائر، كما في الولايات المتحدة؟».

أجابني قائلاً: «لن يكون من الحكمة فرض ضريبة على المهدئات في بلدنا».

قدمت حكومة صدام الرعاية الصحية بالمجان ردحاً طويلاً من الزمن. عارض هافمان ذلك بشدة، مؤكداً على ضرورة دفع العراقيين أجراً زهيداً كلما تلقوا العلاج. قرر الرجل، علاوة على ذلك، تخصيص ما يقارب إجمالي مبلغ سبع مئة وثلاثة

وتسعين مليـون دولار، الذي يمثل حصة وزارة الصحة من التمويل الإضافي، لتجديد مستشفيـات التوليـد، وبناء 150 عيـادة طبية عامة جديدة. تمثلـت غاية هافمان في «تغيير ذهنية العراقيين، فيما يتعلق بضرورة الذهاب إلى المستشفى؛ بغية الحصول على الرعاية الطبية». جسد ذلك هدفاً نبيلاً، بالتأكيد، ولكن الوزارة لم تخصص أياً مـن مبالغ التمويـل الإضافي لإعادة تأهيـل غرف الطوارئ والعمليـات في اليرموك، وغيـره مـن المستشفيات، بالرغم من أن الإصابات الناتجـة عن هجمات المتمردين تمثل التحدي الأكبر الذي تواجهه البلاد فيما يتعلق بمجال الصحة العامة.

مثّلت «كيماديا»، الشركة المملوكة من قبل الدولة -التي عملت على استيراد وتوزيع العقاقير والتجهيزات الطبية على المستشفيات- لبنة ضخمة في صرح الرعاية الصحية في العـراق، وقد كانت تجسد مفخرة حقيقية للمخططيـن السوفييت المركزيين. بلغ عـدد موظفيها اثنيـن وثلاثين ألفاً، ناهيك عن ميزانيتهـا السنوية البالغة 600 مليون دولار، وتأثيرهـا الهائل في نظام الرعايـة الصحية. عملت كيماديا على اختيار ما يتم استيـراده مـن أدوية، علاوة علـى البلدان والشـركات التي تحظى بعقـود التعامل مع العراق، ناهيـك عن تخزين المنتجات، وتوزيعها علـى المستشفيات والعيادات، بينما تكفلت الحكومة بتغطية نفقاتها كافة. افترض بالدواء أن يكون مجانياً في عراق صدام، ولكنه لـم يكن كذلك في معظم الأحيان. افتقرت مستشفيـات وعيادات الحكومة، في العديـد من الأوقات، إلى ما هو ضروري من الأدوية. عمد المقتدرون إلى شراء الدواء مـن الصيدليـات الخاصة، التي تبيع، فـي كثيرٍ من الأحيان، ما تستـورده كيماديا من مواد، ويسرب إلى السوق السوداء، فيما بعد، بواسطة موظفي المستودعات.

كان المسؤولـون في كيماديا، لا الأطبـاء أو مديرو المستشفيات، من يقرر نوعية وكميـة الدواء المرسل إلـى المستشفيات والعيادات. أمكن لرفـوف المستوصفات، مـن ثـمّ أن تعج بنوع مـن المضادات الحيويـة، بينما تفتقر إلى آخـر. عزي السبب فـي ذلـك، في بعض الأحيان، إلـى الافتقار إلى الكفاءة، بالنظـر إلى تكدس العقار الآخـر في المخازن، بينما عاد، في أحيان أخـرى، إلى عدم شراء كيماديا ما يكفي مـن الأدوية. أمكن للشركة، بالنظر إلى ما سبـق، ابتياع ما يكفي خمس سنوات من

أصنـاف محددة، بينما فشلت في التماس العشرات مـن الأصناف الأخرى. منحت العقـود، علاوة على ذلك، إلى شركات البلـدان التي تؤيد صدام، عوضاً عمن يقدم أفضل الأسعار أو الأنواع من المزودين.

تحدث سكـوت سفابيك، مسؤول المشتريات في الجيشـ، العامل في فريق سلطة الائتـلاف الصحـي، بذلك الصدد، قائـلاً: «كانت كيماديا تعـج بالسارقين وعديمي الكفاءة، وفاسدة، وتفتقر إلى الفاعلية».

تمثـل الحل، فـي نظر هافمان، في خصخصتها. رغب الرجـل، بكل الأحوال، قبل أن يعمد إلى بيع كيماديا، في تجربة طريقة اتبعها في ميتشيغان. سعى هافمان، حين كان مديـراً للصحــة العامة في الولاية، إلى التقليل مـن المبالغ الضخمة التي تنفقها ميتشيغـان لتأمين أدويــة الفقراء، عبر تقليصـ كمية الأدوية التي يمكـن أن يصفها الأطبـاء للمنتفعين من برنامج الإعانة الصحية، بحيـث لا يمكنهم التماس ما يخرج عن نطاق لائحة معينة من الأدوية، تعرف بكتاب الوصفات الطبية، إلا عند حصولهم على استثناءات محددة.

ارتـأى الرجـل في اتبــاع الإستراتيجيــة ذاتها وسيلــة لتخفيض أسعـار الدواء في العراق. حوى كتاب الوصفات الطبية العراقي 4500 صنف، يفترض بكيماديا تخزينها فـي المستودعات. إن تقدمـت الشركات الخاصــة إلى مناقصة تزويـد المستشفيات الحكوميــة بالدواء، فقد كانت بحاجـة إلى لائحة أصغر من الوصفـات الطبية، تحدد متطلبـات جديدة عن مكان تصنيع الأدوية المصــادق عليها. ستمثل تلك طريقة لثني العراق عن شراء الأدوية من سورية، وإيران، وروسية، وتحوله نحو الولايات المتحدة.

سأل هافمان واضعــي كتاب الوصفات الطبية في ميتشيغان عما إذا كانوا راغبين فـي القــدوم إلى بغداد، ليجيبـوا بالنفي. التمس الرجل العون مــن البنتاغون، من ثمّ ليصـل طلبــه إلى مركز الاقتصاد الدوائــي، التابع لوزارة الدفاع، فــي سان أنطونيو. توجــه ثلاثة من الخبراء إلى العراق، بعد بضعة أسابيع، تلبية لطلب هافمان، ليصلوه قبل أحد عشر يوماً من توقيع اتفاقية الخامس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر.

تزعم المجموعة تيد بريسكي، الصيدلاني أصلع الرأس، ومتوسط العمر، والرائد في سلاح البحرية. تمثل طلب هافمان، كما استذكره بريسكي، في «إعداد لائحة أدوية جديدة، في أثناء أسبوعين من الزمن، ثم العودة إلى الديار». توصل بريسكي، بحلول يومه الثاني في العراق، إلى الاستنتاجات الثلاثة الآتية: أولاً عدم اتسام اللائحة الموجودة «بذلك السوء حقيقة»، ثانياً: تمحور مهمته فعليا حول «إعادة صياغة نظام التجهيز والتوزيع الصيدلاني العراقي برمته، مما يمثل تغييراً كلياً، واسع النطاق، فيما يتعلق بذلك الصدد»، ثالثاً: «جهل هافمان ومستشاريه، حقيقة، ما كانوا يقومون به».

تحدث جورج غوزكزا، نقيب الجيش، العامل في فريق سلطة الائتلاف الصحي، بشأن هافمان، قائلاً: «رأى العراق كميتشيغان بعد تعرضها لهجوم ضخم. تمثل ما كان يحاول القيام به، بطريقة أو بأخرى، في توسيع غيتوهات ومشروعات ميتشيغان السكنية المحدودة، لتشمل الولاية بأكملها».

بدأ بريسكي والخبيران الآخران، مع ذلك، في وضع لائحة حديثة، عبر تقليص القديمة، المكونة من 4500 صنف، إلى ما يقارب ألفاً وست مئة. لم يكن ذلك كافياً في نظر بريسكي بكل الأحوال. ارتأى الرجل حاجة العراقيين إلى طريقة لإدارة اللائحة، ليضع خططاً بشأن تشكيل لجنة من الصيادلة، تعمل على تحديثها كل بضعة أشهر. ستحظى اللجنة، عبر اختيار ما ينبغي شراؤه من العقاقير، بالقليل من سلطات كيماديا. رأى بريسكي في عمله جزءاً من الخطة الأوسع لتحسين عملية توزيع الدواء. تعين خصخصة كيماديا؛ بغية إنجاح اللائحة الجديدة، أو تجديدها بصورة شاملة.

طالب هافمان بريسكي بألا يقلق بذلك الشأن، بالنظر إلى ما يحمله من خطط كبيرة بشأن كيماديا. اعتزم الأول إقامة نظام سوق فاعل لتوزيع الدواء. مثّل ذلك جزءاً من إستراتيجيته لتحويل نظام الرعاية الصحية الاشتراكي في العراق إلى آخر مماثل لنظيره الأمريكي، يسهم المواطن عبره في دفع نفقات العلاج، علاوة على ما يتضمنه من عيادات للرعاية الأولية. استلزم تحقيق ذلك إعادة صياغة جوهرية

للسياسة الصحية في العراق، ولكن مهمة سلطة الائتلاف المؤقتة كانت تتمثل، في نظره، بالتخلي عنها برمتها، ووضع أخرى جديدة.

وقعت اتفاقية الخامس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، فيما بعد، وأعلن عن قيام الولايات المتحدة بتسليم السيادة إلى العراقيين بحلول حزيران/ يونيو المقبل. عنى ذلك أن من في القصر جميعاً سيغادرون إلى الديار بحلول تلك المدة، إن لم يكن قبلها.

عقد بريمر اجتماعاً شاملاً لموظفي سلطة الائتلاف المؤقتة في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر. لم يتحدث الرجل، من منطلق المصلحة السياسية، عن قيامه بتسريع خططه الكبرى؛ بغية تمكين العراقيين من كتابة الدستور وإجراء الانتخابات قبل نقل السلطة، ولكن الجميع كانوا على علم بما حدث. تحدث بريمر قائلاً: إن موظفي السلطة باتوا بحاجة الآن إلى التركيز على «بناء القدرة» بين صفوف العراقيين، بغية تمكينهم من إدارة حكومتهم. كان الوقت قد حان لإعادة موازنة الخطط والتوقعات. أردف الرجل قائلاً: «ضعوا العراقيين في موقع المسؤولية، وتابعوا ما تستطيعون إنجازه من المشروعات، لا أكثر، قبل حلول حزيران/ يونيو.

توقف هافمان عن الحديث عن خصخصة كيماديا. لم يكن هنالك من سبيل، أمام سلطة الائتلاف المؤقتة، لإنجاز ذلك بحلول حزيران/ يونيو. قرر هافمان ومواليه، مع استبعاد البيع المباشر عن الطاولة، عدم متابعة أي من السبل الأخرى لإعادة تأسيس كيماديا. رغب هافمان في أن تكون وزارته أول ما يسلم إلى العراقيين.

رفض رئيس موظفي هافمان طلب سكوت سفابيك، مسؤول المشتريات في الجيش، بالحصول على 8.4 مليون دولار لترميم مكاتب كيماديا، وشراء ما يلزم من معدات للتواصل بين مقرها في بغداد والمستودعات عبر البلاد. تبنى هافمان بالفعل اقتراح موظفيه بتجريد كيماديا من صلاحية شراء الأدوية، ومنحها إلى فريق مشتريات جديد يشكل ضمن وزارة الصحة. هدفت عملية إعادة التنظيم تلك إلى تقليص فرص تفشي الفساد: إن أبعد مديري الشركة المرتشون عن مسؤولية الشراء، فستقل فرصهم في الحصول على ما هو غير مشروع من العائدات. لم يكن يفصل

عن موعد تسليم السيادة، بحلول تطبيق السلطة الترتيبات الجديدة، ما يتجاوز بضعة الأشهر لا أكثر. لم يترك أعضاء فريق المشتريات -الذين تم اختيارهم من بين موظفي كيماديا- مكاتبهم القديمة على الإطلاق، ناهيك عن استمرارهم في تلقي الأوامر من رؤسائهم القدامى.

تحدث بريسكي، بذلك الصدد، قائلاً: «لم يعتقدوا بقابلية ذلك للاستمرار، مؤمنين بأن ارتباطهم، بصورة أو بأخرى، بفرق المبيعات تلك سيؤدي إلى استبعادهم في نهاية المطاف. استند ما كان يجري، في جزء كبير منه، إلى الفكرة المتمثلة في عدم بقاء الأمريكيين أبد الدهر، وكأن لسان حال العراقيين يقول: «سننتظر مغادرتهم، وسيرحلون بالفعل، وسينتهي بنا المطاف إلى حيث كنا قبلاً».

لم يولِ بريسكي، وغيره من العاملين لدى هافمان، كثيراً من الاهتمام للتحولات السياسية. كانوا قد أتوا العراق لإصلاح الأمور، وقد استنتجوا، في نهاية المطاف، ضرورة توفير الولايات المتحدة المزيد من الموارد، والبقاء مدة أطول؛ بغية إنجاز المهمة. تحدث بريسكي، بعد عام على عودته من العراق، بذلك الصدد، قائلاً: «كيف كان بمقدورنا إصلاح كيماديا؟ كنا بحاجة إلى انخراط العشرات من الصيادلة، وخبراء المشتريات، ومقدمي الدعم والساندة في العمل مدة سنتين من الزمن».

لم يتسم ذلك بالعملانية في نظر هافمان. تحدث، بذلك الصدد، قائلاً: «هل يكمن الحل في إحضار خمسين شخصاً آخر لإدارة كيماديا؟ لا. قد يستغرق الأمر سبع سنوات أخرى لإصلاح الشركة، ولكن ذلك سيتم على الطريقة العراقية. هل تتسم بالكمال؟، لا. هل يمكنهم تولي المهمة؟ نعم».

يؤكد منتقدو هافمان، بكل الأحوال، بما يشمل أكثر من عشرة من العاملين لديه في بغداد، أن الموارد المتوافرة كانت تسمح بإنجاز المزيد في أثناء أشهر الاحتلال الخمسة عشر. صرفت إعادة كتابة لائحة الأدوية، بحسب قولهم، الانتباه عما يجب عمله بالفعل. تعين على سلطة الائتلاف المؤقتة، عوضاً عن ذلك، التركيز على إعادة تأسيس كيماديا، لا خصخصتها، والمطالبة بمزيد من شحنات الأدوية، المخصصة لحالات الطوارئ؛ بغية معالجة النقص في الأدوية الأساسية. لم تنفذ صفقة مشتريات

أدوية الطوارئ الأولى إلى أوائل العام 2004، بعد مضي ما يزيد على ثمانية أشهر من وجود الأمريكيين في العراق.

حقق هافمان، بكل الأحوال، غاية رئيسة كبرى. كانت وزارة الصحة أول ما سلم للعراقيين من الوزارات. أثنى بريمر، حين قام بتلك الخطوة، في آذار/ مارس 2004، قبل ثلاثة أشهر من نقل السيادة، على هافمان، لما قام به من «إنجازات حقيقية، وعملانية».

لم يشارك علاء الدين علوان، وزير الصحة العراقي الجديد –مسؤول منظمة الصحة العالمية السابق، الموهوب، والمتكلم، والمختار من قبل الأخضر الإبراهيمي– بريمر في تقويمه. أخبر علوان من قبل طاقمه أن المستشفيات تفتقر إلى 40% من مخزون ما يبلغ عدده تسع مئة من الأدوية الأساسية، وفق تقدير الوزارة، ناهيك عن عدم توافر ستة وعشرين، من أصل اثنين وثلاثين، من الأدوية المستخدمة في العيادات العامة لمعالجة الأمراض المزمنة.

التمس علوان الأمم المتحدة طلباً للعون، سائلاً الدول المجاورة المشاركة بقدر ما أمكنها. سعى الرجل إلى زيادة الإنتاج في معمل مدار من قبل الدولة في سامراء، ناهيك عن تأجيل صياغة لائحة أدوية جديدة، بالنظر إلى ما تمثله من مهمة عبثية في نظره.

تحدث الرجل، بذلك الصدد، قائلاً: «لم نكن بحاجة إلى لائحة أدوية جديدة، بل الأدوية بحد ذاتها، ولكن الأمريكيين لم يفهموا ذلك».

obeikandl.com

المنطقة الخضراء، المشهد التاسع

بدا الأمر، من بعيد، مثل جنازة، ولكن الجنازات لم تكن تقام في المنطقة الخضراء. كان الموتى يرسلون إلى الديار على متن طائرات سي - 17 غلوب ماستر العملاقة.

انطلق صوت موسيقى القرب من خيمة بيضاء في حديقة القصر الأمامية. جلس الضيوف على ما يطوى من الكراسي، منخرطين في أحاديث جانبية. كان بريمر حاضراً هناك، علاوة على ما يقارب العشرين من الموظفين العراقيين. زينت الورود البيضاء وأزهار القرنفل الصفراء الممر الرئيس، ناهيك عن المزيد من الورود والشمعدانات النحاسية التي زينت المذبح.

قدمت ثلاث من النسوة الغربيات، اللواتي يرتدين ثياباً كردية تطول الأرض، الواحدة تلو الأخرى، لتعقبهن رابعة ترتدي ثوباً أبيض براقاً، يرافقهن -عبر المرج الأخضر- كبير عمال البناء في هاليبرتون، قبل أن تنطلق عبارة «ها قد أتت العروس» عبر بيانو إلكتروني. مثل ذلك عرس مدينة الزمرد الأول والوحيد، احتفالاً بعقد قران جورج أدير وشيريل لويس، الموظفين الصغيرين في مكتب الحكم.

ارتبط جورج وشيريل بعلاقة قبل وصولهما بغداد. كانا قد التقيا في أثناء تحضيرهما لنيل شهادة الماجستير في جامعة جورج مايسون، فيرجينيا. قرر الشريكان، بعد مضي بضعة أشهر على الاحتلال، التقدم بطلبين للحصول على وظيفتين في سلطة الائتلاف المؤقتة. بدا الأمر مغامرةً في حينه.

خصص سريران للشريكين، عند وصولهما القصر، في الجناح الشمالي، في غرفة مشتركة مع مئتين من الموظفين الآخرين. دفع جورج وشيريل السريرين إلى جانب بعضهما، دون أن يحظيا بما يرغبان من حميمية. اعتاد أحد متوسطي العمر من الرجال التنقل بين أرجاء الغرفة، بين الفينة والأخرى، لا يكسو جسده سوى سروال داخلي ضيق أبيض اللون؛ بغية التقاط الصور خلسة للنسوة النيام. لم ترغب شيريل في أن تضبط بما هو محرج من الأوضاع.

obeikandi.com

عمد الشريكان، بعد ذلك إلى البحث خلسة، في أرجاء القصر، عما هو آمن من الأماكن لملاطفة بعضهما بعضاً.

تحدثت شيريل، بذلك الصدد، قائلة: «وجدنا العديد منها».

عقب جورج قائلاً: «مكاتب شاغرة، مع ما يقفل من أبواب».

عقبت شيريل قائلة: «وحمامات».

عقب جورج قائلاً: «وعربات».

عقبت شيريل قائلة: «وغرفة خزائن النساء في صالة التمارين الرياضية، مع بابها القابل للقفل».

كان اصطحاب شيريل إلى خارج المنطقة الخضراء، بغية تمضية الليل في المدينة، بمثابة الأمر المستحيل، مما اضطر جورج إلى مرافقتها إلى فندق الرشيد: إلى الحانة، والمقهى، وصالة الديسكو.

اعتاد الشريكان، في بعض الأحيان، التوجه إلى قاعدة الجيش، في المطار، للتسوق من متجر «البي إكس»، وتناول الطعام في مطعم «البيرغر كينغ». كانا يتجولان قبالة بركة السباحة، داخل القصر، أو على السطح، أو في الحديقة، وقد قصدا الحانة المقامة في معسكر مقطورات موظفي هاليبرتون. وفرت الحانة من المشروبات الكحولية ما لا يمكن إيجاده في أي من الأماكن الأخرى داخل المنطقة الخضراء: التيكيلا، والفودكا، و«البدويزر». تمكن العاملون فيها من إدخال أي من السلع إلى مدينة الزمرد.

سأل جورج أحد أصدقائه -حين قرر التقدم لطلب يد شيريل- إرسال خاتم من الولايات المتحدة، عبر خدمة «الدي إتش إل» البريدية. تعرضت طائرة الخدمة البريدية، في اليوم الثاني، لهجوم بالصواريخ عند إقلاعها من مطار بغداد، لتؤجل رحلات الشحن المستقبلية جميعها، بما يعيق وصول الخاتم المنتظر. سأل جورج شيريل الزواج به في باحة فندق الرشيد، دون تقديم الخاتم.

obeikandl.com

شعـر موظفـو القصر العراقيـون بكثير مـن الحماسة، لإمكانية عقـد القران في المنطقة الخضراء، مما دفعهم إلى تقديم ما أمكنهم من عون. أعارت إحدى النساء شيريل ثوب الزفاف، بينما تكفلت أخرى بتأمين بطاقات الدعوات، وعملت ثالثة على إحضار الورود.

افتقـر الشريكان للخواتم مع اقتـراب موعد زفافهما المقرر فـي الثالث من كانون الأول/ ديسمبـر، ممـا دفعهما لاقتناء خاتمين فضيين مـن محل للمجوهرات في فندق الرشيد.

رغـب جورج وشيريل في إقامة المراسم في كنيسـة القصر، الغرفة الحاوية على جدارية عملاقة لصاروخ سكود، ليتم تحويلها إلى مهجع في أعقاب الهجوم على فندق الرشيد. نقلت الكنيسـة إلى الخيمة البيضاء، في نهاية المطاف، ليرتضي الشريكان إقامة الزفاف في الحديقة.

عمـد أحد زملائهمـا في مكتب الحكـم، في أثنـاء مراسم الاحتفـال، إلى قراءة قصيـدة «ذا رود ليس ترافيلد» لروبـرت فروست. مرَّ جورج وشيريـل، بعد إعلانهما زوجـاً وزوجة، وتبادلهما القبـل، أسفل قوس على هيئة اثنتين من سكاكين «الكوكري» النيباليـة المتقاطعة، المحمولة من قبل مقاتلي الغوركا الذين يتولون حماية القصر. ركـب العروسـان، فيما بعد، عربة همفي، كتبـت عبارة «متزوجين تـوّاً» على غطائها بعجالـة، بواسطة معجـون الحلاقة. قصد جورج وشيريل فنـدق الرشيد، حيث أقاما حفل استقبال، بما يحويه من كعك وموائد الطعام، قبل التوجه إلى شقة بجانب بركة السباحة، تخصص في العادة لكبار الشخصيات. غادر العريسان إلى دبي، في اليوم الثاني، لقضاء شهر العسل.

تلقى جورج وشيريل، في اليوم اللاحق لعودتهما إلى بغداد، الطرد البريدي الحاوي الخاتم الموعود.